

## تسمية العثمانيين : « الدولة العثمانية »

أم :

### « الامبراطورية العثمانية » ؟

الدكتور محمد مقصود أوغلو

مدخل :

نثبت في مقالتنا هذه ، تسمية العثمانيين لدولتهم ، ثم نتناول مفهوم « الامبراطورية » في وجهاتها الثلاث وندرس : هل تنطبق هذه الوجهات على العثمانيين أم لا ؟ .

وهذه الوجهات الثلاث هي :

١- الوجهة السياسية

٢- الوجهة الثقافية

٣- الوجهة الاقتصادية

وتنتهي المقالة بتقرير النتيجة تحت عنوان « الخلاصة » .

مما لا شك فيه أن تسمية أية مؤسسة أو أي وجود سياسي بغير الاسم الذي سمت به تلك المؤسسة نفسها ، وعرفت به

طوال القرون ، يتضمن تقويما ذاتيا مغرضا كما ينطوى على العداة تجاهها ، فمثلا يسمي المسلمون السنيون فرقة اعتقادية بـ « المعتزلة » بينما سمت تلك الفرقة نفسها بـ « أهل العدل » أو « أهل التوحيد » أو « أهل الحق » . ولو تبني السنيون آراء ذلك المذهب لسموه أيضا بـ « أهل العدل » أو « أهل التوحيد » أو « أهل الحق » .

ولكنهم استمروا في تسمية ذلك المذهب طوال القرون بـ « المعتزلة » متبعين في تسميتهم هذه عبارة الحسن البصري العالم الجليل التي قالها في حق واصل بن عطاء المعتزلي الأول، حينما قال : « اعتزل عنا واصل » .

ومن جهة أخرى ، إذا ذكر « عمرو بن هشام » مثلا فإنه لا يكاد يوجد من يعرف الشخص المقصود بهذا الاسم ، ولكن إذا ذكر « أبو جهل » فإن أكثر المثقفين المسلمين يعرفونه ويتذكرون عداة الشديد للإسلام وعناة المستمر وعدم قبوله لطريق الهداية .

وبعد هذه المقدمة نأتي إلى صلب الموضوع وهو تعمد بعض الكتاب أن يسموا الدولة العثمانية بـ « الامبراطورية » ، ونحن عندما ننظر إلى الوثائق العثمانية والكتب المؤلفة والمطبوعة في عهد العثمانيين ، لانرى أبدا عبارة « الامبراطورية العثمانية » ، بل نجد أنهم سمو مؤسستهم السياسية بـ « دولت عليّة عثمانية » (الدولة العثمانية العلية) ، ولم يسموا دولتهم أبداً بـ « امبراطورية عثمانية » ( الامبراطورية العثمانية ) ، ولا يوجد لهذه العبارة أي أثر في تراثهم ولا في ما كتب في زمانهم ، ولهذا فيجب على كل عالم أو كاتب جادّ ممن يستعملون عبارة « الامبراطورية العثمانية » في حق الدولة العثمانية ، يجب عليه أن يستظهر

وثيقة عثمانية في هذا الشأن على الأقل باللغة العثمانية ، وإذا ما لم يأت بالوثائق المؤيدة لرأيه ، فإن تسميته للدولة العثمانية بـ«الامبراطورية» تكون لا أساس لها من الصحة ولا قيمة لها البتة من الناحية العلمية والتاريخية .

وفي الحقيقة لم يسم العثمانيون دولتهم بـ«الامبراطورية» أبدا ، وتوجد عدة آلاف من الوثائق في «خزانة الأوراق العثمانية» ( T. C. Basbakanlık Osmani Arsivi ) بإستانبول تثبت الحقيقة في هذه المسألة ، حيث نجد في هذه الوثائق المحفوظة بالأرشيف العثماني بإستانبول وفي المراسلات الرسمية للعثمانيين تسمية المؤسسة العثمانية السياسية بـ«الدولة العثمانية العلية» أو «الدولة السنية» وهناك آلاف الوثائق تظهر وتثبت وتؤكد هذا الأمر طوال القرون كما يوجد العديد من الكتب التي ألفها المؤرخون العثمانيون الرسميون ( موظفو الدولة ) تثبت هذا الواقع أيضا .

وسأعرض فيما يلي بعض الوثائق المحفوظة بالأرشيف العثماني المتعلقة بهذا الشأن :

ممالك دولته عديده ناپولى ممالكى بينق تحت البحر وضع وتتميزه ادرينيه نعلب نغرافى ايجوره دولت عديده ناپولى دولتي  
برساده وعفا ونس لاريم كعسه وليفتنه مساهمة فيجوره في دولت مشايرلا مخصيله نيكره دنظيم ايتراك ادرره

BOA, Name-i Humayun Defteri 12,

Memalik-i Devlet-i 'Aliyyemle Napoli Memaliki beyninde tahtel bahr vaz' ve temdid olunacak hatt-i telgrafi icun . . .

أوائل رمضان ٧٥ ( ١٢ ) / ١٨٥٨ .

( وفيما يتعلق بالسلك التلغرافي الذي سيوضع وسيمد  
بين البلاد لدولتي العلية وبين البلاد النابلية تحت البحر ... )  
وثيقة أخرى :

بزرگ و طغرالمولود ترکستان و عثمان اولغی و ممالک و بلادک بادشاهن سلطان ابی اسلمه بن السلطان الغازی عبدالمجید خان ابی اسلمه الغازی  
محمود خان ابی اسلمه الغازی عبدالمجید خان ابی اسلمه بن السلطان الغازی عبدالمجید خان ابی اسلمه بن السلطان الغازی عبدالمجید خان  
محمود خان ابی اسلمه بن السلطان الغازی عبدالمجید خان ابی اسلمه بن السلطان الغازی عبدالمجید خان ابی اسلمه بن السلطان الغازی عبدالمجید خان

Biz ki bilutfil Mevla Turkistan ve samil oldugu memalik ve buldanin padisahi as sultan  
ibn as Sultan al Gazi Abdulmedid Khan ibn as Sultan al Gazi Mahmud Khan Ibn as  
Sultan al Gazi Abdulhamid Khaniz. Isbu tasdikname-i humayunumuzla beyan ve i'lan  
ideriz ki DEVLET-i 'ALIYYEmizle Hasmethu Nederlanda ve Biba KRALI Hazretleri  
beyninde mevcut olan revabit-i dustiyi te'yid . . .

( نحن ، بلطف المولى ، پادشاه تركستان والبلاد التي  
تحتوي عليها ، السلطان ابن السلطان ، السلطان الغازي عبد  
المجيد خان ابن السلطان الغازي محمود خان ابن السلطان  
الغازي عبد الحميد خان ، نبين ونعلن هنا مصادقتنا الهمايونية ،  
ونؤيد الروابط الودية الموجودة بين دولتنا العلية وبين جلالة ملك  
ندرلانده ( هولانده ) وبينا ... )

هنا ، يصدق عبد المجيد خان ، السلطان العثماني ، على  
المعاهدة المتعلقة بتبادل القناصل بين الدولة العثمانية العلية وبين  
جلالة الملك ، ملك هولانده وبينا وفي سنة ١٨٥٧ .

لو نودي السلطان العثماني والخليفة بـ « الامبراطور »  
لكان الأمر مضحكا جدا ، لأنهم سموا مؤسستهم السياسية

ب «الدولة العلية» ولم يسموها ب « الامبراطورية » .

سلطنة سنية فخريته بهمه سبوره سعادته علم بلانجه بيزو يتنجي رينه ونيه فاته زافه من غير انعه من خصه دوله  
 زارة سنية جايه تاثيره افضاه على سيرة اهلها من اجابة اوله في اجابة اوله في اجابة اوله

BOA, AMD 257                  163

SALTANAT-I SENIYYE nin Peste Sehbenderi Sa'adetlu 'Asim Beg Efendi . . .

عاصم بك أفندي ، سعادة القنصل العام للسلطنة السنية  
 بيشته ...

إن العثمانيين استعملوا كلمة « السنية » كصفة  
 لدولتهم ، ولم يستعملوا كلمة « امبريال » ، وإنهم كانوا على  
 معرفة بكلمة « الامبراطور » وقد استعملوها ولكنهم استعملوها  
 في مكانها المناسب ، وبالنسبة للأباطرة الحقيقيين :

عاصم افندي  
 ٩١ - مستد ألمانيا امبراطور مقربك سعادتي وقابله من غير من اجل فوه الدير نام زارة بيزو يتنجي من رفقته من كتاب  
 الامم اسى فضلى زارة سنية وعقده لا ارضه به دولته اعلمه اوله في ١٦ هـ في ١١ هـ

BOA, AMD                  256          14

( صاحب العظمة امبراطور ألمانيا ...  
 فيما يتعلق بالتكريم على أحد الضباط الملازمين  
 لامبراطور بوسام من قبل العثمانيين ) .

فرانسى امپراطور حضرتى جزيه كيه جكده وتونس واليسى دونومايسا حضرتى كيوب موقاربه ايه جكده تيريك قديم مورجا  
 وپرسى اخطاربه دالم نارسى سفير عطفونوا احمد وجمه ان حضرتى طرفينه ككده عثمانيه قزاق اولدى خاطرله ككلاف  
 بعضه محاديره منى والامكارله حضرتيه تيريك قديم مورجا وپرسى سب اوله مريدن سفيرسا باله جوانا بليديسى  
 شعوب بولسدر

BOA, AMD 216 37

( حضرة امبراطور فرنسا... )

فيما يتعلق برحلة الامبراطور الفرنسي إلى الجزائر ورأي  
 الوزراء العثمانيين في عدم ذهاب باشا تونس العثمانية للترحيب  
 به .

صنوبر ايرنا امپراطوره حضرتى سره ناطير وبقنت هيجمانا ووجي ناطير قوت اويا ما وفاجير ناطير بيقينا

BOA, AMD 257 154

( الوزير المسؤول عن القصر لصاحب العظمة الامبراطور  
 الياباني ... )

صنوبر ايرنا امپراطوره حضرتى سره ناطير وبقنت هيجمانا ووجي ناطير قوت اويا ما وفاجير ناطير بيقينا

BOA, Irade - Hariciye 626 Sevval 1332

( صاحب العظمة الامبراطور النمساوي ... )

## مستند إرنيا إمبراطور ميس صفر

BOA, AMD 257 169

( صاحبة العظمة عقيلة الامبراطور الياباني ... )

ختمتو مكتور روما امبراطورى اولاده متوفى النجى قارولون

BOA, Name-i Humayun Defteri 8 71

( الامبراطور الرومانى ، قارولوث السادس المتوفى )

ويلاحظ أنه إذا كانت الدولة المعاهدة مع العثمانيين ،  
دولة جمهورية ، فإن العثمانيين يسمون تلك الدولة:  
بـ « الجمهورية » :

دولت عليه ايلا امريكا جمهورية بزم عصه اوله بربل نابيهه مع هذه سي

Devlet-i Osmaniyyeile Amerika Cumhuriyeti beyninde akdolan tebdili tebe'iyet muahedesi . . .

( وفيما يتعلق بالمعاهدة التي أبرمت بين الدولة العثمانية  
وبين جمهورية أمريكا حول تبديل التبعية ... )

وفي الواقع ، فإن المؤرخين العثمانيين الذين كتبوا  
التاريخ العثماني كانوا مكلفين من قبل السلطان بهذه المهمة ،  
وقد تحدثوا طوال القرون عن المؤسسة العثمانية السياسية وسموها  
بـ « الدولة » .

وسأقوم فيما يلي باقتباس بعض العناوين المتعلقة  
بالموضوع من كتب التواريخ :

( الكلام في ظهور الدولة العلية العثمانية ) هكذا ،  
باللغة العربية ، والمتن باللغة التركية - العثمانية )  
نعيمًا ، روضة الحسين في خلاصة أخبار الخافقين ،  
المجلد الأول ، ص ٦ .

تتم الكلام في ظهور الدولة العلية العثمانية  
فهلج محرراوزره وقتنا كه صفحات ادوار و صحايف روزكار اوزره كلك حكمت  
وخاصة قدرت ايله سنين مئين هجرت بشير ، نذير ، نوال مشروح

إن نعيما ( ١٦٥٥ - ١٧١٦ م ) كان مؤرخا رسميا  
مكلفا بتسجيل الوقائع ، وهو يستعمل الاسم واللقب الحقيقيين  
والطبيعيين للعثمانيين : « الدولة » و « العلية » ولو كان  
السلطان العثماني أو الوزراء يعتبرون المؤسسة السياسية الحاكمة  
« امبراطورية » لأشاروا على نعيما بتصحيح الاسم واللقب ،  
وهم لم يفعلوا طبعًا إذ أنهم لم يتصوروا أن تسمى دولتهم في  
وقت من الأوقات بـ « الامبراطورية » ، ولو كان الأمر كذلك ،  
لرأينا مثلا عبارة : « ظهور الامبراطورية العثمانية » ، ولكنهم لم  
يستعملوا هذه العبارة قطعا .

ولنقتبس من كتاب مؤرخ عثماني رسمي آخر :

كامل طبع هذا التاريخ الجديد والاثرا المفيد المسمى بحاسن الاثار وحقايق  
الاخبار لاحد واصف افندي المؤرخ في الدولة العلية العثمانية لازالت

أحمد واصف ، محاسن الآثار وحقايق الأخبار ، المجلد  
الثاني ، ص ٢٥١ . بولاق ( مصر ) ١٢٤٣ .

وفي آخر الكتاب نجد هذه العبارة بالعربية :

( كامل طبع هذا التاريخ الجديد والاثرا المفيد المسمى  
بـ « محاسن الآثار وحقايق الأخبار » لأحمد واصف أفندي



المؤرخ في الدولة العلية العثمانية ...

وهناك المصادقة من قبل السلطان العثماني عبد العزيز سنة ١٨٧٠ على المقررات من قبل ممثلي العثمانيين وألمانيا والنمسا وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا وروسية المتخذة بلندن حول تعديل بعض مواد معاهدة باريس التي أبرمت في ٣٠ مارس من سنة ١٨٥٦ ، فلنطالع الألقاب الرسمية لممثلي تلك الدول المعنية :

بذكر بلفظ المن تركمانه وسنل اولدين ممالك وبعيدك بادستهم السلطان امير السلطان السلطان عبد العزيز خان امير السلطان الغازي محمود خان  
امير السلطان الغازي عبد الحميد خان امير السلطان الغازي عبد العزيز خان امير السلطان الغازي عبد العزيز خان امير السلطان الغازي عبد العزيز خان  
امير السلطان الغازي عبد العزيز خان امير السلطان الغازي عبد العزيز خان امير السلطان الغازي عبد العزيز خان امير السلطان الغازي عبد العزيز خان  
امير السلطان الغازي عبد العزيز خان امير السلطان الغازي عبد العزيز خان امير السلطان الغازي عبد العزيز خان امير السلطان الغازي عبد العزيز خان

« نحن بلطف المولى پادشاه تركستان والبلاد التي  
تشتمل عليها ، السلطان ابن السلطان ، السلطان عبد العزيز  
خان ابن السلطان الغازي محمود خان ابن السلطان الغازي عبد  
الحميد خان ، نفيد ونعلن بمرسومنا الهمايوني هذا ، التصديق  
على ما اتفق عليه ممثلو دولتنا العلية وممثلو حضرات صاحب  
العظمة امبراطور المانيا وملك بروسيا ، وصاحب العظمة امبراطور  
النمسا وملك البوهيميا وانكروس ، وصاحب الأصاله رئيس  
الحكومة الإجرائية لجمهورية فرنسا ، وصاحبة العظمة ملكة

الممالك المجتمعة لبريطانيا العظمى وايرلانده ، وجمالة ملك  
إيطاليا ، وصاحب العظمة امبراطور جميع روسية ... » .

١٩ محرم ١٢٨٨

نري أن لقب الحاكم العثماني :

بلطف المولي السلطان ابن السلطان ، پادشاه تركستان

السلطان عبد العزيز خان ابن السلطان الغازي محمود

خان .

ابن السلطان الغازي عبد الحميد خان .

ويتحدث السلطان العثماني عن المؤسسة السياسية

بـ «دولتنا العلية» وليس «امبراطوريتنا العظيمة» ، ويذكر

لقب الحكام الآخرين كما يلي :

١- صاحب العظمة امبراطور المانيا وملك بروسيا ؛

٢- صاحب العظمة امبراطور النمسا وملك البوهيميا

وانكروس ؛

٣- صاحب الأصلة رئيس الحكومة الإجرائية لجمهورية

فرنسا ؛

٤- صاحبة العظمة ملكة الممالك المجتمعة لبريطانيا العظمى

وايرلانده ؛

٥- جمالة ملك إيطاليا ؛

٦- صاحب العظمة امبراطور جميع روسيه .

كما نشاهد نفس الأمر في الوثيقة المصدقة على

الاتفاقية القنصلية بين الدولة العلية وبين ملك باويه را :

دوره عميد امبراطور ايراني في سنة ١٢٨٨ سنة ١٢٨٨

هذا مرسوم مصدق على الاتفاقية القنصلية بين الدولة

العلية وبين ملك باويه را :

« نحن بلطف المولى پادشاه تركستان والبلاد التي  
تتضمن عليها ، السلطان ابن السلطان ، السلطان عبد العزيز  
خان ابن السلطان الغازي محمود خان ابن السلطان الغازي عبد  
الحميد خان نفيد ونعلن بمصادقتنا ( الهمايونية ) هذه ، بين  
دولتنا العلية وبين جلالة ملك باويه را »

إن هذه الوثيقة حقيقية ، تنتظر بالأرشفة العثمانية  
بإستانبول من يهتم بالوقائع والحقائق ، وتظهر وتثبت الألقاب  
الحقيقية ، ولا حاجة لنا بعد هذا بإطالة الكلام في هذا الشأن .  
ومن جهة أخرى ، نلاحظ أن العثمانيين يقولون عن  
المؤسسة السياسية العثمانية فيما يتعلق بالأمور الداخلية أيضا ،  
« الدولة العلية العثمانية ... »

میرا بہ ہمایونہ صوابیو بہر اسبوع صلا مطالعہ اولدی دولہ ہما یونہ

BOA, Mukteza Deñteri 21 114

( اطلع علي المطلب الذي أحيل إلى الديوان الهمايوني ،  
بالنسبة للمراكب الخدمة التي تحمل علم الدولة العثمانية  
العلية ... )

وثيقة أخرى :

تتبع طلبت هانہ اراضہ داخلہ معلم میرالای فیضی بکک برنوالہ بترقیع رقبہ می سر فضا رداوینا رادو  
شیر ہفتہ ہاد فضا ہی ایجا شایکیندہ اولدورہ دائرہ صبیہ عسریہ و فہا بنیہ سادہ ایلمہ فضا رادو

BOA, AMD 257 72

« فيما يتعلق بترقیع رقبہ میرالای فیضی بک ، معلم

الأمراض الداخلية بكلية الطب الشاهانية إلى رتبة مير لواء ... »  
وفيما يلي نقتبس بعض الأمثلة الأخرى :

٧٤٤ عساكر شاهانه برلواند سعادينو هيدريسيه به بنجي ربه ده ساعا عمانه امانه

BOA, AMD 257 145

... عساكر شاهانه ...

الجنود الشاهانية ... ( لا امبريالية )

٤٤٩ ايكنجي فرقه همايونده مستخدم فونده هجم او سمي بنقوليه بنجي ربه ده فتم مجيدي امانه

BOA, AMD 257 71

ايكنجي فرقه همايونده مستخدم ...

الذي يُستخدم في الفرقة ( الفيلق ) الثانية السماوية

( الهمايونية ) ... ( لا امبريالية ) .

١٨٤ مکتب إعدادی شاهانه ده رسم خوجه سي

BOA, AMD 256 29

مكتب إعدادي شاهانه ده رسم خوجه سي

معلم الرسم ( التصوير ) بالمدرسة الإعدادية الشاهانية ...

( ليس الامبريالية )

٧٤٤ تبعة دولت عليه دن قوماشجي او هانس اغايه بشنجي

BOA, AMD 257 149

تبعه دولت عليه دن قوماشجي او هانس اغايه بشنجي

رتبه دن نشان مجیدی إحسان بیور لمسنه مبنی ...  
 بناءً على التكرم على تاجر الأقمشة أوهانس من تبعة  
 الدولة العلية بوسام مجیدی من الرتبة الخامسة ...

بوسام مجیدی اردو همایون

BOA, AMD 256 34

یدنجی اردوی همایون ...

الجيش السماوي ( الهمایوني ) السابع .

إن العثمانيين اعتقدوا أنهم كانوا يحملون الرسالة  
 السماوية - الإسلام - لذا فقد سماوا جيوشهم بـ « اردوی  
 همایون » ( الجيش الهمایوني ) ، لأن « هما » طائر خيالی  
 (اسطوری) كما هو المعلوم يعيش دائماً وأبداً في السماء ، لا  
 ينزل ولا يطأ الأرض وتبيض في السماء أيضاً ، فتفتح البيضة  
 أيضاً في السماء ، فيخرج الفرخ ولا يطأ الأرض ، وكلمة  
 « همایون » تعنى : المنسوب إلى ألك « هما » ، ولم يسموا أبداً  
 جيشهم بـ « الامبریالی » ، ولم يتبنوا ذلك اللقب أبداً .

قد يقال إنه من الممكن أن تكون دولة ما امبریالية ولا  
 تستعمل كلمة « امبريال » أو كلمة « امبراطورية » ، ونؤجل  
 تقديم نماذج الوثائق الأخرى المقتبسة من عدة آلاف الوثائق  
 بالأرشیف العثماني ، إلى نهاية هذه المقالة ، وننظر هل تنطبق  
 وجهات الامبریالية على العثمانيين :

(١) الوجهة السياسية للامبراطورية :

في الأنظمة الامبراطورية نجد شعباً حاكماً ونجد شعوباً

محكومة ومغلوبة على أمورها ، والحكم بيد الشعب الحاكم الذي يزود الإدارة بالإطارات الإدارية والممثلين ويفرض على الشعب التي تحت سيطرته إرادته ورغباته ، ومما لا شك فيه أن أحسن معيار لبيان حقيقة النظام الامبريالي هو المقارنة لإثبات الوقائع والحقائق ، فلنقتبس من بعض الكُتّاب الغربيين في هذا الشأن :

« الامبريالية ( مشتقة من اللاتيني : امبريوم : قدرة ) الحصول على الامبراطورية وإدارتها في كثير من الأحيان هو نوع من التوسع التجاري والصناعي العامين ، أخذت إسبانيا والبرتغال والبلاد المنخفضة ( هولانده ) وفرنسا وبريطانيا تنشئ امبراطوريات ما وراء البحار ابتداء من القرن الخامس عشر فصاعداً ، ومن الممكن القول بأن الامبريالية المعاصرة بدأت اعتباراً من الثمانينات وثمانمئة وألف تبذل قصارى جهدها للحصول على المستعمرات في أفريقيا المتخلفة » . (١)

« الامبريالية الأوروبية والإدارة الامبريالية كانت إدارة الشعوب الأجنبية والأراضي الأخرى من قبل الأوروبيين مظهراً مهماً جداً للسيطرة السياسية ، وكان هناك نقاش و ما يزال حول ماهية الامبريالية ، يظهر أنه من المفيد أن تنحصر الفكرة الامبريالية في السيادة المباشرة والصورية بالرغم من أن حدودها تختلط بأنواع السيطرة على العالم اللاوربي ...

وفي القرن التاسع عشر توسعت الامبريالية الاوربية وأصبحت أكثر تأثيراً من قبل وحدث هذا الأمر في مرحلتين مختلفتين : المرحلة الأولى بدأت حوالي ١٨٧٠ ، وفي خلال تلك الفترة ، استمرت بعض القوى الامبريالية في توسيع امبراطورياتهم توسيعاً مؤثراً ، مثل روسيا وفرنسا وبريطانيا

العظمى ، و آخرون توقفوا أو وجدوا أنفسهم منكمشين مثل :  
الهولانديين والأسبان والبرتغال » . (٢)

« اعتبر الأتراك أنفسهم قبل كل شيء « مسلمين »  
حتى القرون التاسع عشر : وكان ولاؤهم على المستويات المختلفة  
للإسلام والأسرة العثمانية والدولة ، اللغة التي يتكلم بها المرء ،  
البقعة التي يسكنها ، والعنصر الذي يدعي المرء الانتساب إليه ،  
كان من الممكن أن تكون كل هذه العوامل تشير إلى خصائص  
شخصية ، عاطفية أو اجتماعية ، لم يكن لهذه الأمور تأثير  
سياسي أبدا ، إن الأتراك تبنا الإسلام وعرفوا أنفسهم  
كمسلمين إلى درجة أن فكرة الانتماء إلى الشعب التركي قد  
نسيت إلى حد كبير - بالرغم من استمرار اللغة التركية ووجود  
الدولة التركية فعلا إن لم يهتموا بذلك من الناحية النظرية -  
واستمرت فكرة « التركية » بين الناس العاديين وأهل القرى  
والبدو ووقع التعبير عنها في صورة الأدب الشعبي الغني  
والمهمل ، والطبقة المثقفة الحاكمة لم تهتم بانتمائها التركي  
مثلا هو الحال بالنسبة للمثقفين العرب والفراسيين كجماعة  
لها خصائصها وثقافتها داخل إطار الإسلام » . (٣)

ومما لا شك فيه بطلان الادعاء أن الأتراك العثمانيين  
استعملوا الإسلام مستهدفين به التظاهر أمام رعاياهم العرب  
والآخريين بأنهم كانوا مسلمين ، ولهذا حكموهم . ولتقتبس  
الكاتب الغربي الغير المسلم :

« إن الدولة العثمانية ( و يقول الامبراطورية ، حسب  
التعود ) كانت من تأسيسها إلى انحطاطها عبارة عن دولة  
وُجدت للتطوير أو الدفاع عن القدرة الإسلامية والإيمان ، كان  
العثمانيون في حرب دائمة خلال ستة قرون مع الغرب

النصراني، في البداية محاولين وناجحين - بصفة عامة - فرض الحكم الإسلامي على قسم كبير من أوروبا ثم الدفاع والمحاولة لوقف أو تأخير الهجوم العشوائي من قبل الغربيين ، هذا النزاع الذي استمر طوال القرون والذي كان ينبثق عن الإسلام - التركي ، كان من الطبيعي أن يتأثر به كيان الجمعية التركية والمؤسسات التركية ، فبالنسبة للتركي العثماني ، كانت دولته (ويستعمل امبراطوريته حسب التعود ) هي الإسلام نفسه ، مشتملة على الأراضي الأساسية الإسلامية ، وفي كتب المؤرخين العثمانيين يقال عن الأراضي العثمانية دائما « الأراضي الإسلامية » ، وعن الحاكم « پادشاه إسلام » ، وعن الجيوش « عساكر الإسلام » وعن الرئيس الديني للدولة العثمانية « شيخ الإسلام » ، ومن حيث الهوية يعتبر شعب الدولة العثمانية أنهم مسلمون قبل كل شيء . وكما رأينا فإن استعمال مصطلحي « العثماني » و « التركي » هو استعمال حديث بالمقارنة ، حيث إن الأتراك سمو أنفسهم « مسلمين » ، - انصهرت هويتهم في الإسلام - إلى درجة تفوق أي شعب مسلم ، وجدير بالذكر أنه حينما كانت كلمة « التركي » لا تكاد تستعمل في تركيا ، أصبحت تلك الكلمة تعني « مسلم » في الغرب ، وكان يقال عن المهتدي الغربي أنه صار « تركيا » حتى ولو اهتدى أحد في مدينة فاس المغربية أو في أصبهان (خارج الحدود العثمانية ) . (٤)

ولم يكره العثمانيون الشعوب التي حكموها على الإسلام ، بل نظمهم حسب معتقداتهم في نظام « الملة » ، كان لكل شعب « ملته » أي انتظم جميع الشعوب في « ملل » حسب أديانهم فكانت هناك مثلا « ملة الأرمن » ، « ملة



الروم» ، الخ . وكانت كل ملة تتمتع بحرية كاملة ، يقول الأستاذ ( C. M. Kortepeter ) :

« يستحق العثمانيون الثناء عليهم بتطبيقهم نظام « الملة » الذي هو سقيم سياسيا ولكن يستحق المدح أخلاقيا ... » (٥) .  
وكما هو معلوم ، فإن الشعوب المحكومة تكون تعسة وشقية تحت الحكم الامبريالي ، وتحاول بطبيعة الحال ، التخلص من المستعمر إذا سنحت لها الفرصة ، ولو كانت الدولة العثمانية امبراطورية ، و امبريالية ، لثارت عليها جميع الشعوب التابعة للحكم العثماني بأوروبا بما فيها الشعوب التي كانت قد دخلت في الحكم العثماني أخيرا ، حينما تحطمت الدولة العثمانية في سنة ١٤٠٢ نتيجة الحرب مع تيمور الأعرج وأسر السلطان بايزيد ودخل العثمانيون في حرب داخلية استمرت إحدى عشرة سنة ، ولم يكن هناك أسطول عثماني يستحق الذكر وقد انقسمت الأراضي العثمانية إلى قسمين كبيرين في الأناضول وأوروبا ، يفرق بينهما المضيق ، وفي الوسط الدولة البيزنطية ، عاصمتها القسطنطينية ، فلو ثار أي شعب في الأراضي العثمانية بأوروبا لكان من السهل جدا أن يحرز استقلاله ، ولكن لم يثر أي شعب على العثمانيين ، مما يظهر ويثبت ما كان يسود تلك المناطق إذ ذلك من العدل والرفاهية تحت حكم الدولة العثمانية .

وهل يكون الأمر كذلك في حكم امبريالي ؟ والجدير بالذكر أن السكان بالقسم الأوربي من الدولة العثمانية كانوا في الغالب غير المسلمين .

وبالعكس ، نجد النصارى ( الصرب والكروات ) قد تصارعوا في ما كان يسمى بـ « يوغوسلافيا » في الربع الأخير

من القرن العشرين ، وهم لم يتصارعوا تحت الحكم العثماني ،  
يثبت هذا الأمر أن العدل والهناء كانا سائدين في المنطقة وكان  
الناس في عيشة راضية تحت الحكم العثماني الذي كان يسمح  
للجميع بحرية العقيدة والعيش حسب معتقده .

ومن جهة أخرى ، نشاهد موقف الناس من الحكم  
الامبريالي فيما يحدث في الاتحاد السوفياتي نتيجة فرصة متاحة  
إلى حد ما .

ومن المعلوم أن كثيرا ممن حازوا منصب « الصدر  
الأعظم » والوزراء كانوا من أصل غير تركي حيث انهم أخذوا  
من الشعوب التي كانت تحت الحكم العثماني بأوروبا ، وبعضهم  
كان يحتفظ بلغة أمه وكان يتحدث بها ، وهم الذين تحملوا  
المسؤولية في كثير من الأمور المهمة وفي الجيش المركزي (جنود  
الانكشارية ) من « الدوشيرمه » ( المأخوذة من النصارى  
التابعين للدولة ) عادة وليس من العنصر التركي .

### فكيف تكون الدولة العثمانية امبراطورية تركية ؟

ونرى أيضا ، الشخص الذي يمثل الدولة العثمانية  
كقنصل رسمي للدولة في باويه را مثلا ، ليس تركيا مسلما ،  
بل هو رومي نصراني واسمه ارستاركي بك :

ازدتر بيميز بونامه ديميك نامة زيانك بربنه بيمه ونشاه انتمار دوله علميه  
سازقاندي هانر دماس اولاده اسناك بك دفرال ساه ايم مختري طرفده  
BOA NHD 13 P.71

هذه أمثلة قليلة ، ونعرف أن الدولة العثمانية التي قامت  
للإسلام ، وكان الإسلام سبب وجودها ، كانت تسامح أتباعها  
من غير المسلمين ، ونرى وزراء أرمن نصارى في الحكومة  
العثمانية .

وهل هذه ، صورة للدولة التركية الامبريالية ؟

## (٢) الوجهة الثقافية :

من أهم مظاهر امبراطورية ما ، أن تفرض لغتها على الشعوب المحكومة ، لأن اللغة هي الحجر الأساسي للثقافة ، ولا شك أن الثقافة هي أهم العناصر التي تبني الشخصية الإنسانية وأكثرها تأثيرا في صياغة الشخصية ، وبناء على ذلك ، ينتمي الفرد عادة إلى الشعب الذي يتعرع في ثقافته ، لا إلى الشعب الذي ينحدر منه عرقيا ، فالشعوب الافريقية المحلية وصلت إلى حالة قريبة من ضياع هويتهم ، وصار الخريجون وكثير من الناس يتكلمون بالانكليزية أو الفرنسية ، وهيا الانكليز ظروفأ أصبح الناس بسببها يظنون أنهم بريطانيون ، ولو سئل افريقي محلي تحت الحكم البريطاني مثلا ، عما إذا كان سافر إلى بريطانيا لأجاب : « لا ، لم أذهب إلى الوطن أبدا » . كأن وطنه هو بريطانيا ، وكان التونسي أو الجزائري تحت الحكم الفرنسي لا يكاد يجد عملا يسد به رمقه إن لم يعرف اللغة الفرنسية ، وفي الاتحاد السوفياتي يعرف جميع الناس تقريبا اللغة الروسية مع أن أكثر السكان ليسوا من جنس روسي .

## ومن مظاهر الأمبريالية :

أن العلوم الطبية كانت تدرس باللغة العربية بالجامعة في مصر ، ومن نتائج الاستعمار البريطاني والأمبريالية البريطانية أن أصبحت العلوم الطبية اليوم بمصر تدرس باللغة الانكليزية ، لا باللغة العربية إذ أن الامبريالية البريطانية بذلت قصارى جهدها للقضاء على العربية الفصحى .

والعثمانيون ، على العكس ، استعملوا اللغة العربية

الفصحى للتدريس ، لا اللغة التركية طوال القرون الخمسة الأولى على الأقل ، وفي القرن التاسع عشر بدأوا يدرسون العلوم الحديثة باللغة الفرنسية في بعض كليات الجامعة . واستمرت اللغة العربية تدرس كلغة أساسية وتدرس العلوم الإسلامية بها حتى انقراض الدولة العثمانية ، واستعملوا الحروف العربية لكتابة اللغة العثمانية - التركية ، وكانت الصورة العامة للحياة الثقافية صورة عربية لسبب وحيد وهو أن العثمانيين قاموا للإسلام ، والإسلام كان سبب وجود دولتهم ولغة العربية لغة القرآن الكريم ، وقد احتوت اللغة العثمانية - التركية على كلمات دخيلة من العربية في حدود ٦٠ ٪ على الأقل ، واللغة التركية تحتوى اليوم علي كلمات دخيلة من العربية في حدود ٣٠ ٪ . ولا حاجة لذكر أهمية الأسماء التي يتسمى بها الناس ، وكلمة « علم » تستعمل للعلامة التي تمثل « الدولة » كما أنها تمثل الشخص ، إذن ، علم الإنسان كعلم الدولة ، وإذا نظرنا إلى أعلام الحكام العثمانيين فإننا نجدهم كما يلي :

عثمان ١٢٩٩م ، اختيار الدين اورخان ١٣٢٦م ، مراد الأول ١٣٦٠م ، بايزيد ١٣٨٩م ، محمد الأول ١٤٠٢م ، ١٤٢١م - سليمان ١٤٠٣م ، موسى ١٤١٠م ، مراد الثاني ١٤٢١م ، محمد فاتح القسطنطينية ١٤٥١م ، بايزيد الثاني ١٤٨١م ، سليم الأول ١٥١٢م ، سليمان المشرع ١٥٢٠م ، سليم الثاني ١٥٦٦م ، مراد الثالث ١٥٧٤م ، محمد الثالث ١٥٩٥م ، أحمد الأول ١٦٠٣م ، مصطفى ( أولا ) ١٦١٧م ، (ثانيا) ١٦٢٢م ، عثمان الثاني ١٦١٨م ، مراد الرابع ١٦٢٣م ، إبراهيم ١٦٤٠م ، محمد الرابع ١٦٤٨م ، سليمان الثاني ١٦٨٧م ، أحمد الثاني ١٦٩١م ، مصطفى الثاني ١٦٩٥م ،

أحمد الثالث ١٧٠٣م، محمود ١٧٣٠م، عثمان الثالث  
 ١٧٥٤م، مصطفى الثالث ١٧٥٧م، عبد الحميد ١٧٧٣م،  
 سليم الثالث ١٧٨٩م، مصطفى الرابع ١٨٠٧م، محمود الثاني  
 ١٨٠٨م، عبد المجيد ١٨٣٩م، عبد العزيز ١٨٦١م، مراد  
 الخامس ١٨٧٦م، عبد الحميد الثاني ١٨٧٦م، محمد الخامس  
 رشاد ١٩٠٩م، محمد السادس وحيد الدين ١٩١٨م،  
 -١٩٢٢م.

حكم العثمانيون القسم الأكبر من شمال افريقيا ، ولو لم  
 يذهب العثمانيون هناك لكانت تلك البلاد - أعني الجزائر  
 وتونس وليبيا - لكانت بلاد ايتكلم أهلها باللغة الاسبانية ويدين  
 بدين الكاثولك ، كما حدث بالنسبة للأندلس - اسبانيا - ،  
 وقد ذهبت فرنسا وبريطانيا وايطاليا إلى شمال افريقيا بعد  
 العثمانيين .

فهل هناك - ولو شخص واحد - من بين حكامهم  
 وملوكهم من سمي باسم عربي ؟ هذا أمر لا يتصور ، وفي  
 تركيا نجد أعلام الناس كذلك عربية - إسلامية عامة حتى  
 اليوم، أي بعد زوال دولة العثمانيين بـ ٧٠ عاما .

**والخلاصة :** هل يمكن لإمبراطورية ما أن تعلم شعبها  
 لغة شعب تحت حكمها وأن تستعمل لغة شعب آخر كلغة  
 التدريس طوال القرون ، وتسمي حكامها وكثيرا من أفراد شعبها  
 بأسماء مأخوذة من شعب تحكمه ؟ وتكتب لغتها بحروف لغة  
 شعب تحكمه ؟ ونجد حتى في أيامنا هذه ، أن أشهر الخطاطين  
 الماهرين بالخط العربي ، هم من تركيا ، إذ أن فن الخط له  
 جذور عريقة في التراب التركي ، وهل من الممكن أن يتصور  
 الإنسان أن اللغة العربية تستعمل في بريطانيا وفرنسا كلغة

التعليم ؟ وهل يمكن أن يتصور الإنسان اللغتين الانكليزية والفرنسية مكتوبتين بالحروف العربية ؟ مع العلم أن المهتمين الأوربيين يستعملون الحروف العربية للغتهم سرىا ولكن هذا أمر آخر ، وتحدث هنا عن سياسة دولة حكم الأراضي العربية .

حدث هذا الأمر بالنسبة للغة التركية ، إذ أنها كتبت بالحروف العربية ألف سنة حتى ١٩٢٨ م ، بعد ست سنوات من انقراض الدولة العثمانية ، وكان أول مؤلف ألف القواعد للغة التركية هو Jean Deny عالم فرنسي ، ليس تركيا ، وبالنسبة للأتراك الذين كانوا يدرسون بالمدارس العثمانية ، كان علما الصرف والنحو علمين خاصين باللغة العربية فحسب بالنسبة إليهم لم يكن للغة التركية صرف ولا نحو . كانت اللغة العربية والثقافة الإسلامية الحجرين الأساسيين للحياة العقلية العثمانية ، إن الشاعر فضولي ، أحد الشعراء الذين برعوا في العهد العثماني ، « كتب قصيدته المسماة بـ « صو » ( الماء ) في مدح النبي محمد عليه الصلاة والسلام ، يصور فيها كيف يجري الماء منساباً بين الأحجار في البحث عن محمد صلى الله عليه وسلم ويحاول الوصول إليه ، وتلك القصيدة من أروع القصائد التي أنشئت في العهد العثماني .

وكان في كل بيوت العثمانيين تقريبا ، « الشمائل الشريفة » في صورها المختلفة باللغة العربية ، تصور شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن صور الحكام العثمانيين على جدران البيوت .

ولنقتبس من مؤلف عربي غير مسلم في كتابته عن اللغة التركية في الإدارة العثمانية :

« خادم السلطان الذي استعمل اللغة التركية ، لم يكن

السلطان الذي لم يتكلم باللغة التركية لم يحس أنه يبقى خارجا عن البيئة السياسية « (٦) .

وأخيرا ، لتذكر ما حدث في المجال الثقافي بين دي غول وبين عبد الناصر :

قرر عبد الناصر لسبب ما ، أن تدرس لغة أوربية أخرى مكان اللغة الانكليزية بالمدارس المصرية وأعلن عن قراره ، فقرر شارل دي غول ، الرئيس الفرنسي إرسال ٤٠٠ معلم للغة الفرنسية إلى مصر على الفور على نفقة الحكومة الفرنسية ! .  
(٣) الوجهة الاقتصادية :

تستعمل الامبراطورية تجارها ليستغلوا قدر الإمكان المواد والمنابع في المستعمرات ، أما في الدولة العثمانية فلم يكن هناك تجار من الأتراك طوال القرون ، وكانت التجارة في الغالب بيد غير المسلمين حتى انقراض الدولة العثمانية ، إذ « تعلم المسلمون أربع مهن : الإدارة ، الحرب ، الدين ، والزراعة . كانت الصناعة والتجارة متروكتين إلى غير المسلمين المحكومين الذين استمروا في تطبيق صناعاتهم الموروثة » . (٧)  
أهذا يا ترى تصرف امبراطورية ؟

لو كانت الدولة العثمانية قوة امبريالية ، لكان الشعب الأصيل فيها ، المؤسس لها ، أعني الأتراك ، أغنى الناس في الدولة ، وكما هو معلوم ، لم يكن الأمر هكذا البتة .  
وقد خاضت القوى الامبريالية حروبا من أجل الحصول على السوق والتجارة ، وتاريخ اوربا في القرن التاسع عشر مليء بمحاولات الأوربيين في البحث عن الأسواق الحرة ، وعلى العكس ، قامت الدولة العثمانية على مبادئ أخرى ، تنطلق من الإسلام ، ويجدر بالذكر بهذا الصدد ، أن حسين ، داي الجزائر

العثمانية لطم الممثل الفرنسي بالجزائر من أجل أحد أتباع الدولة العثمانية ، ولم يكن ذلك المواطن الجزائري مسلما ولا تركيا ، بل كان تاجرا يهوديا ذميا ، وعمل الداى هذا تسبب فى احتلال الجزائر من قبل فرنسا في سنة ١٨٣٠ م .  
الخلاصة :

لقد أثبتنا وأكدنا في هذه المقالة ما يلي :

١- إن العثمانيين لم يستعملوا أبدا « امبراطورية » بالنسبة لدولتهم ، ولكنهم استعملوها بالنسبة للامبراطوريات الحقيقية التي يليق بها هذا اللقب ، ولم تعارض تلك الامبراطوريات على هذا اللقب .

٢- إن العثمانيين تبّنوا واستعملوا عبارتي « الدولة العلية » و« الدولة السنية » .

٣- قامت الدولة العلية العثمانية على الإسلام ومن أجل الإسلام ، وكان الإسلام للدولة السنية هو « سبب وجودها » ، واستعملوا لقب « الهمايوني » (السماوي) بالنسبة لسلاطينهم وجيوشهم ، والدولة العثمانية لم تكن دولة قومية .

٤- « الامبراطورية » و « الامبريالية » لا تتماشى مع الدولة العثمانية أبدا من النواحي السياسية والثقافية والاقتصادية. ونعود فنكرر : أن تسميه أية مؤسسة سياسية -اجتماعية، أو أي كيان سياسي بغير اسمه الخاص ، تنطوي على تقويم مغرض وغير موضوعي وتتضمن العداة نحوه ، ولا يحق لأحد أن يسمي العثمانيين بتسمية « الامبراطورية » ، هذه الكلمة التي تشتمل في اشتقاقها ومعناها على الاستغلال وانتهاب الخيرات، ويكون من استعمل هذه الكلمة القدرة بحق



الخيرات، ويكون من استعمال هذه الكلمة القدرة بحق  
العثمانيين قد افترى عليهم. هل نتكرم عليهم بلقب لم  
يحتاجوا هم إليه ولم يستعملوه طوال القرون أبدا ؟  
ومن المفترض أن يفكر كل عالم وكاتب في الكلمات  
التي استعمالها الآخر دون تفكير ، إن العالم والمفكر يختلف عن  
البيغاء الذي يردّد ما يسمع دون تفكير ولا فهم ، ولكن الباحث،  
العالم ، يحسن الناس الظن به ويفترضون فيه أنه يفكر مرة قبل  
أن يتكلم ويفكر مرتين قبل أن يكتب .  
فعلى كل عالم ومفكر يحترم نفسه ومكانته وحسن ظن  
الناس به أن لا يستعمل تلك الكلمة التي لا تناسب العثمانيين  
علميا وتاريخيا وواقعا كما أثبتنا ، و بالله التوفيق .

### الهوامش

- 1) Chiras Cook, Dictionary of Historical Terms, Macmillan, London.
- 2) J. M. Roberts, The Hutchinson History of The World, P.835
- 3) Bernard Lewis. The Emergence of Modern Turkey, P. 2 London,1968.
- 4) ..... Ibid, P.13.
- 5) C.M. Kortepeter , Comment on Halil Inacik 's ' The Turkish Impact on the Development of Modern Europe ' in " The Ottoman Sttoman State and hts place in World History " , Ed . by Kamal Karpat , Leiden

1974.p.59.

- 6) Albert Hourani , ' The Ottoman Background of the Modern Middle East ' in " The Ottoman State and its place in World History " , Ed , by Kemal Karpat p.67
- 7) Bernard Lewis , op . cit , p.35.

★★★